مما لم ينشر للرافعي :

أمن عصر العقل إلى عصر القلب؟ أم من عصر العقل إلى عصر المعدة؟

مشكلة الفقر والغنى بين العلم والقانون والإيمان

للمرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي

يزعمون أننا فى عصر العلم ، وفى دهر القانون ، ويريدون أن يسلبوا الناس إيمانهم ، كأن الإيمان هو مشكلة الإنسانية ؛ مع أنه لا حل لمشكلتها إلا به . إن مسألة الغنى والفقر ، وما كان من بابهما لا يحلها العلم ولا القانون إذ هى من مواد القضاء والقدر فى إنشاء الآلام والأحزان وأضدادها التى تقابلها ، وما كان فوق الإنسانية من السماء قوة لا تحد ، وتحت الإنسانية من القبر هوة لا تسد ، فلا نظام إلا على تصريف النفس أمراً ونهياً ، وتأويل الحياة معنى وغاية ، فان لم يكن الشأن فى ذلك مقرراً فى الغريزة على جهة الإيمان ، فلن يكون العلم والقانون على ظاهر النفس إلا ثورة بما فى باطنها ، ولن يبرح الناس على ذلك بعضهم من بعض كالهارب منه وهو مضطر إليه ، أو كالمضطر إليه وهو هارب منه ، وكلٌّ من كلٍّ فى معنى من معانى النفس لا إنسانية فيه

ما زاد العلماء على أن خلقوا فى ساعدَى الحياة هذه العضلة البخارية ، وذلك العصب الكهربائى . فمن لم يستطع أن يتوقى ضربة الحياة المدنيـة بعدة من قوة ، وعتاد من مال ، طاحت به فدكته دكّ الخسف ، ووضعته من الناس موضع الحية من الرحى الدائرة . فما بينه وبين أن ينهار موضع يستمسك عليه ، وإنما هذا الموضع هو إيمان المؤمن إذ يعطف على الضعفاء أو يُسعِدُ أو يبرُّ بما كتب عليه أن يرق لهم من ذات نفسه ويتحنى ويتوجع .

ومتى كان العلم والدين يقومان جميعاً على تنظيم الطبيعة فى مادتها وإنسانيتها لم تجر الإنسانية إلا على بقاء الأصلح فى الجهتين ، فاذا تخلى بها العلم وحده فلن تجرى أبداً إلا على ناموس بقاء الأصلح فى ظاهرها لإيجاد الأفسد فى باطنها .

لن يصلح الإنسان للحياة الطيبة — ما دام بهذا التركيب الذى لن يتغير — إلا إذا وازن بين غيشته التى هو يوجهها وبين طباعه التى توجهه ، فقيد أشياء فى قيودها ، وأطلق أشياء من قيودها ، وجمع فى متبوّأ نفسه حداً بحرية ودينا بعلم . بيدَ أن طغيان العلم فى هذه المدنية قد مرد على طباع[1] الإنسان وشمائله فى كل موضع من الحياة لا تكافئه فيه قوة الدين فاذا هو يزين الشهوات ، وإذا الشهوات تطوع الفاهرة ، وإذا الفاهرة تجلب المنازعة ، وإذا المنازعة تدفع إلى الحرص ، وإذا الحرص يتصرف بالحيلة ، وإذا الحيلة تهلك التقوى ، وكان فى تقوى الإنسان إيمانه ، وكان فى إيمانه رحمته ، وكان فى رحمته الأثير الإنسانى الذى تعيش فيه الروح . وعلى ذلك يقع فى الإنسان من النقص بمقدار ما يزيد له العلم ، فاذا هو منحدر إلى السقوط مقبل على المحق راجع إلى الحيوانية بأكثر مما يحتمل تركيبه منها .

أو لا يرى الناس أن تفوق أمة على أمة لم يعد فى هذه المدنية إلا معنى من معانى القدرة على أكلها ... ؟

ومضى العلم على شأنه ذاك حتى جعل الإنسان آلة من آلاته التى غمر بها الدنيا فأصبح من لا إيمان له يتعسف خسائسه[2] لا يدرى أين يؤم منها وأين يقف ، فلا يتسفل بقوة إنسان ولا بضراوة وحش ، ولكن بقوة آلة من الآلات الكبرى ودقتها وسرعتها وإتقانها ... حتى لا رذيلة من رذائل هذه المدنية إلا هى مفتنة فى تركيب على نسق الأمور المخترعة ، وكأن الآلات العمياء مازادت إنسانها شيئاً إلا أن قالت له كن أعمى ، وكأن المدنية الملحدة ما عدت أن جعلت الوحشية تعمل أعمالها الفظيعة بتأنق وتمدن

نسى الناس الإيمان أو انسلخوا منه ، فاذا أيديهم تموج بأسباب الفضائل[3] تحكمها ولا تضبطها ، وما كان الإيمان الصحيح إلا التقوى[4] ، ولا كانت هذه التقوى إلا عملا من أعمال الإرادة غايته إيجاد الغرائز العليا فى الإنسان بالأسلوب الذى لا تخلق الغريزة العملية فى النفس إلا به ، وعلى النحو الذى

(١) أى مرن عليها واستمر وبلغ بها الغاية التى تخرجها من جملة ما عليه الطبع الانسانى الكريم .

(٢) يتخبط فيها على غير هدى .

(٣) ماجت اليد بالشىء إذا اضطربت به كأن أيديهم لا تضبط أسباب الفضائل من ضعفها عنها

(٤) الاسلام كله فى كلمة التقوى كما بيناه مفصلا فى كتابنا (إعجاز القرآن) فانظره . وكلمة التقوى من معجزات هذا الدين . ولقد قال (هكسلى) قسيم دارون الشهير : « إن الدين هو إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة العمل على تحقيقه فى الحياة » وكل هذا من قول أستاذ القرن التاسع عشر . وكل ما سبقه به الفلاسفة والحكماء ، وكل ما جاء وما سيجىء هو من معانى (التقوى) فى الإسلام لا تضيق الكلمة عن شىء منه .

لا تصلح فى الحياة إلا عليه . أظهر آثار الإيمان تحديد الغايات الإنسانية وتنسيقها والملاءمة بينها ، فان إطلاق الغاية لكل إنسان على شأنه وسبيله كيف درّت معيشته[1] وكيف دارت أهواؤه يجعل طرق الناس متداخلة متعادية فيقطع بعضها على بعض ويقوم سبيل فى وجه سبيل ، فلا تحل عقدة إلا من حيث تُقرض أختها ، ولا يتخلص خيط من خيوط اللذات الملتبسة المتشابكة إلا قاطعاً متقطعاً معاً . وأنت إذا بحثت عن الوحدة التى تحاول ضم الإنسانية المتنافرة وردها إلى مرجع واحد لم تجدها فى غير إيمان المؤمنين ، فهو أبداً يقابل فى كل نفس ما تطغى به الحياة على أهلها ، ولا عمل له إلا أن يحذف الزيادات الضارة بالإنسان من بيئته ، وبالبيئة من إنسانها ، وهو بهذا حائل فى كل مجتمع بين أن تنقلب أسباب السمو العقلى فتعود من أسباب الدناءة والخسة .

وإنما محل الإيمان من أهله فوق محل الحكومة ممن تحكمهم ؛ فهو الأمر والنهى بلغة الدم والعصب ، وهذه الغايات التى تتألف من أجلها الحكومات كأمن الناس ونظامهم وسعادتهم هى أنفسها محكومة بمسائل تأتى من ورائها فى طبائع الناس وعاداتهم ومعايشهم ومصالحهم ، فان لم تكن فى النفوس من الدين أصول تأمر وتحكم ، وفى الطباع من اليقين أصول تستجيب وتخضع ، رجعت الحكومة فى الناس أداة مسلطة لا تغنى كبير غناء فى الخير والشر . إذ يحتاج الخير أبداً إلى قوتها تحميه ، ويحتال الشر أبداً على قوتها تستنفذه ، ومتى لم يكن الخير إلا بالقوة فاحتياجه إليها شر ، ومتى لم يكف الشر من القوة فاحتيالها عليها شر مثله ، فاذا تضعضعت من الأديان هذه الدعائم الراسية ، وفرّط من الانسانية هذا الفارط الذى ليس فى الأرض كفاء منه — لم تجد حسنة فى حكومة من الحكومات إلا معها من طبيعتها سيئة ، ، ولم تجد سيئة إلا هى سيئتان ، فلن تكون الحياة حينئذ إلا تعقيداً أشد التعقيد من طغيان القادرين عليها بالمال والغنى ، ومن حقد العاجزين عنها بالفقر والحاجة .

والغنى القادر على متع الحياة ولذاتها هو دائماً فى فلسفة العاجز قادر بلا قدرة ، كما أن الفقير الضعيف هو دائماً عند نفسه عاجز بلا عجز ، ولا أدل على ذلك من تعبيرهم عن معناه بالكلمة التى تشبه أن تكون هى أيضاً معنى بلا معنى ... وهى الحظ . فلا بد للناس من الحدود التى تبنى بين كل ضدين من أحوال الإنسانية جداراً يعطف نفساً على نفس بالرحمة ، ويرد قوة عن قوة بالصبر ، ويكف عادية عن عادية بالتقوى ، ويحقق عوامل التوازن بين أسباب الاضطراب فى الجماعات المتصادمة ليُقرّ كلّ مضطرب فى حيز إن لم يمسكه فيثبت فيه لم يفلته فيعدو على سواه . فاذا عملت المدنية على هدم هذه الحدود ، وتركت قوة الإيجاب فى طبيعة الحياة بغير قوة قلبية سليمة من الإيمان فى طبيعة النفس ، كشفت للانسان عيوبه ببلاغة من تعبير شهواته فزادتها رسوخاً فيه كما تقول للص : إنك لتسرق وستصبح غنياً تمر يدك فى الذهب تنفق وتستمع على ما تشتهى . فما رأيك قلت له لا تكن لصا وتعفف ، بل قلت له كن غنيا واستمتع . ويومئذ يغبر البؤس ويقشعر الفقر كما ترى لعهدنا فى الأمم التى فشا الإلحاد فيها ، فليس من بعد إلا أن يتحول الفقر عن صورته البيضاء فى سكب الدمع إلى صورته الحمراء فى سفك الدم ، وكان سؤالا فيعود اغتصابا ، وكان الأسفل فيرجع الأعلى ، وكان يفرضه الحق فإذا هو الحق نفسه . والله لكأن السكين فى هذه المدنية هو الجزء اللئيم الذى طرده الغنى من نفسه وتبرأ منه وأمات ما بينه وبينه ، فإذا هما اعترضا فى مذهب من مذاهب الحياة ، نفر الغنى كأنما يرى قبره يدنو منه ، وأطبق عليه البائس بمعانى النقمة واللعنة يقول له ما أنا إلا لؤمك أنت .

إن من الشجر شجرة تنبت فى القفر تعتصر ماءها من بين رمل وحجر ، وتمتص غذاءها من لؤم الجدب ، فاذا حان أن يزهر عودها شوك فلا يكون فى عقده ونبره[1] إلا شوك ، فإذا ازدرعوها فى الخصب وخضلها الماء[2] ، وساغت لها الطبيعة ، ثم حان أن يزهر عودها ملمس كرم الأرض[3] ؛ فإذا فى موضع كل شوكة زهرة كأنها كلمة الحمد . وكذلك مثل الفقير بين الملحد والمؤمن

ترى أيخرج الإنسان فى هذه المدنية من عصر العقل إلى عصر القلب ، أم هو منحدر من عصر عقله إلى عصر معدته ؟

وكان على هذه الأرض أغنياء مؤمنون فيهم من كرم الحس شبه الفقر ، ومساكين مؤمنون لهم من كرم الصبر شبه الغنى ، فهل تنقلب المدنية من الغنى المحض والفقر المحض إلى مادة تخلق اللحم الحى وأخرى لا تخلق له إلا الظفر الحى ... ؟

وكان اختراع الإنسان فى المادة الجامدة ، أفتراه يجىء يوم على الناس يكون أعظم اختراع فيه للانسان الأخير أن يعيد إلى الأرض إنسانها الأول الكريم ؟

مصطفى صادق الرافعى

(١) كناية عما تتفق به أسباب العيش وتجتمع وتزكو .

(١) النبر النتوء الذى فى العود . (٢) بله الماء
(٣) نعمته وأدمجته وأزالت نتوءه .